أيمن العتوم

اسمُه أحمد

روايـة

الإهداء

إلى الجيل الّذي لم يُلق البندقيّة ،
الجـيل الّذي لم تحـرفْـه البـوصلة ، ولم تُغـيّـره الاصطفافات ، ولم تخدعه الطّاولات . .
وظلّ أمينًا على السّيف ألاّ يُغمَد . . . وعلى الرّمح ألاّ يُكسَر . . .
وعلى الرّاية ألاّ تهوي في الطّين وتدوسها الأقدام . . .
وعلى جراح الشّهداء أنْ تظلّ المنارة ،
وعلى دمائهم أنْ تُبرعم وردًا وياسمينًا . . .

أيمن

(٠)
اسمُه أحمد

تقلّبتْ أمّي على الفِراش ، ابتسمتْ ، ورغم أنّ الحَمْل في أيّامه الأخيرة كان مُتعِبًا ، لكنّه كان مُنتَظَرًا ، وكلّ لهفةٍ مع المُنتَظَر تُجمّله ولو كان قاسِيًا . إنّه شباط ، شهر البرد لكنّه كذلك شهر الوَعد ، الوعد الّذي تضحك فيه السّماء للأرض ، فتكافِئُها الأرضُ برسم تلك الضّحكة على شكل ألوانٍ ثرثارة من بعدُ . . في لوحةٍ بديعةٍ تَعزّ على الوصف . وإنّها (إبدر) ؛ القرية الّتي تنام على سفوح الجبال الشّاهقة ، مجنونةً بنسائم العبق المُقدّس المُرتحل إليها من فلسطين ، وإنّه أنا . . . أنا القادم على قَدَر . . . القادم من رَحِم الحُلم الأجمل ، الحلم الّذي حوّلتْه أمّي العظيمة إلى حقيقةٍ لا تُنسَى . . . وستعرفون صِدْق ما أقول في هذه السّطور الّتي أقصّها عليكم . . . هل هذه حكايتي؟! كلاّ ؛ إنّها ليستْ كلّ الحكاية ، وليستْ حكايتي وحدي ؛ بل ما تذكّرتُه منها ؛ قد يكون هناك تحت السّطور أشياءُ لم أرسمها ، أو كلماتٌ لم أقلْها ، لكنّكم سترون الصّورة وستسمعون الكلمة ، لأنّكم مثلي ؛ تنتمون إلى هذا التّراب الّذي أنتمي إليه ، وتشربون من هذا الماء الّذي أشربُ منه ، ولذا أنصِتوا إليّ بقلوبكم ؛ إن وجدتمْ مَنْ يُشبهكم في هذه الحكاية أو ما يلمسُ أرواحكم ، فاعلموا أنّ ذلك لم يأتِ عفو الخاطر ، بل كان مقصودًا ؛ وسأقول ما حدث معي طَرِيًّا كأنّه الدّم الّذي ما زال يسيل . . . والجرح الذّي ما زال يثعب . . .

كانَ يُثقلها الخوفُ عليّ قبل أنْ آتي ؛ الخوف من الحرارة اللّعينة ، الحرارة الّتي تستوطن جسد الأطفال بلا مُقدّمات فتقضي عليهم ، في قريتنا كثيرون ذهبوا مع الحرارة الّتي سكنتْ أجسادَهم أيّامًا ثُمّ رحلتْ بهم معها إلى وادي الموت ، وأخي الأكبر أصابه شيءٌ منها لكنّها فضّلتْ أنْ تُبقي على حياته لنا تاركةً في جسده بعض الآثار الّتي ستظلّ مُلازمةً له طَوال عمره . . . بدأ الخوف يتسرّب إلى قلبِ أمّي من جديد ، لكنّها مثل كلّ مَنْ في القرية ، كُنّ ينتظرْن حُلُمًا يكونُ بمثابةِ مُعجزة ، حلمًا يقول لهنّ : إنّ هذا المولود القادم سيعيش ولن يموتَ كالآخرين ، سيعيش إلى أنْ ترَيه رجُلاً . . . أمّي كانت تُؤمن بالأحلام ، لكنّها لم تكنْ تستسلم لها . . كانتْ تنتظر البُشرَى من خلال منام لكنّها لم تكنْ لترهنَ حياتها على تلك البُشرَى في ذلك المنام ؛ كانتْ قادرةً على أنْ تصنعَ توازُنًا بين الحلم والحقيقة ، ولكنّها كانت أقدر على تحويل الحلم إلى حقيقة ، ولا شكّ أنّ أمّي كانتْ من هذا النّوع العظيم ، النّوع الّذي لا يضعف رغم أنّ كلّ ما حولَها من الظّروف القاسِية يَدفعها إلى أنْ تستسلم أو تأخذ هُدنةً . . . لكنّني لم أرها – والله يشهد – ترفع الرّاية البيضاء حتّى في أحلك لحظاتِ حياتها وأقساها . . . كانتْ دائمة التّحدّي ، دائمة العنفوان ، دائمة الرّضا ، وفي عينَيها تستوطنُ ألفُ حكايةٍ من بطولةٍ وإصرار!!

تقلّبتْ على الفراش وهي تبتسم ، في الظّلمات ، برزتْ لها تلك المرأة السّوداء ، كان يُنيرُ جسدها التّمثاليّ المسبوك ضوءٌ قادمٌ من بعيد ، يُلقي هالةً من النّور حول وجهها فيبدو بريئًا ، لكنّه حزين بعضَ الشّيء ، كان سواد الوجه المصقول الهادِئ يُضفي تلك المسحة الظّاهرة من الحزن على الوجه الّذي تراه أُمّي لأوّل مرّة ، وعلى غيرِ ميعاد .

خفضت المرأة بصرها ، ثُمّ رفعتْه كأنّها تستأذن أمّي في الحديث معها ، أو كأنّها تفتح بابًا للكلام ليسَ من المعقول بَدْؤُه دون إذن ؛ ظلّتْ أمّي صامتةً ، كانتْ بسمتها ترحيبًا بهذا الضّيف الغريب أكثر منه اندهاشًا لَمرآه ، قالتْ لها : أفضل الأسماء عبد الله وأحمد ؛ وكأنّ أمّي سألتْها عن أفضل الأسماء وأحسنها مع أنّها لم تفعل!! من أينَ خرجتْ تلك المرأة في ذلك الحلم اليتيم لتقول لأمّي ذلك؟ لا أحدَ يدري . كانتْ لا تُشبه أحدًا ، لا في نظرتها ، ولا في هدوء بسمتها ، ولا في حُزنِ قَسَماتِها ، ولا في لطفِ كلماتها . . . كانتْ أمّي تُجيدُ الحِوار ، وارتاحتْ لأنْ تبدأ معها حوارًا يبدو أنّه يحمل البُشرَى قبل أنْ يحمل الاسم ؛ وإلاّ فلا معنى أنْ يُسمّى المولود ما لم يُولَد وما لم يكنْ متمتِّعًا بالصّحّة . . . كان ذلك يعني لأمّي الكثير ، فأرادتْ ألاّ تسأل شيئًا ، ولا أنْ تخترع كلماتٍ ما دامت البُشرى تحمل معها قُدومي سليمًا ، لكنّ وجه المرأة شجّعها على أنْ تمضي قُدُمًا في الحديث ، فسألتْها : وأيّهما أفضل من الآخر : عبد الله أم أحمد؟ لم تردّ المرأة بغيرِ ابتسامةٍ وادِعة ، كرّرتْ أمّي عليها السّؤال ، فلم تُجِبْ ، وبدأ الظّلام يصنعُ بشكلٍ تدريجيّ دائرةً حول جسدها ، غطّى بعضها ، فخافتْ أمّي أنْ ترتحل المرأة فجأةً كما ظهرتْ ، كرّرت عليها السّؤال هذه المرّة بإلحاح : عبد الله أم أحمد؟ لكنّ الظّلام هذه المرّة انتشر حتّى غطّى أجزاءً كثيرةً من وجهها . . . أوشكتْ أمّي أنْ تفقد المرأة في جوف الظّلام ، فسألتْ مرّة ثالثة ، لكنّ السّؤال في هذه المرّة كان يحمل نبرةَ الرّجاء : عبد الله . . . أم . . . أحمد . .!! أتمّ الظّلام انتشاره في هذه المرّة ، فغطّى ما تبقّى من وجه المرأة الغامِضة ، وكانتْ ابتسامتها هي آخرَ ما سقط في بئر الظّلمة آنئذٍ . . . أحدث الوجه الّذي سقط في البئر فزعًا عند أمّي ،

فاستيقظتْ وهي تلهث . لم تشأ أنْ توقظ أبي ، كانتْ ترى أنّ ذلك الحلم شيءٌ يخصّها ، وسِرٌّ يعنيها وحدها ، ومن غير اللاّئق أنْ تُطلعَ عليه أحدًا . . . ثُمّ ماذا سيفعل الرّجل لو قصّتْ عليه ما رأتْ : أغلبُ الظّنّ أنّه سيقول لها وهو يُدير لها ظهره : «استهدي بالله يا امرأة ، واتركي هذا الكلام الفاضي» ، أو سيكرّر الآية الّتي يحفظها دون وعي ، ويقولها بمناسبة أو بلا مناسبة : «أضغاث أحلام» عودي إلى النّوم ودعيني من أحلامك الّتي لا تنتهي ، ألا أستطيع أنْ أحصل على ليلةٍ واحدة أنام فيها مرتاحًا بعد أسبوع متعبٍ في العسكريّة!! هكذا تخيّلت الحوار الّذي سيدور بينهما ، وبالتّالي اختصرتْ على نفسها تبعاته المُنغّصة ، فصمتتْ واكتفتْ بالذّهاب إلى الخابية الّتي تقع عند مدخل البيت الصّغير ، فتحتْ نافذة الباب ، ومدّتْ عنقها ، نظرتْ إلى السّماء كان الجوّ باردًا ، واللّيلة مُقمرة ، وعددٌ كبيرٌ من السّحب الكُحليّة العالية يقطع قرصَ القمر في رحلته المُسرعة نحو المجهول . . . حزّ البردُ وجهها ، لكنّها غطّتْه ، لفّتْ جدائلها الطّويلة تحت اللّفعة السّوداء ، وفتحت الباب ، تناولت الكوز ، وملأتْه من الماء ، وشربتْ ، لم تشربْ ماءً رائعًا مثل ذلك الماء في تلك اللّيلة ، كان باردًا بالحدّ الّذي يسمح للأرض العطشى بأنْ ترتوي ، وللآمال المخنوقة بأنْ تُزهِر . . . شربتْ كثيرًا قبل أنْ تحمد الله وتعود إلى فِراشها ، وقد ازدادتْ فرحًا وطُمأنينة . مرّتْ على غرفة الأولاد ، ها هو باسم ، وها هي بسمة ، وابتِسام ، ورابعة ، وإيمان . كانوا ينامون بهدوء ، كما لو أنّ عالمًا من الجَمال ينتظرهم في المستقبل .

في الصّباح ، كانتْ أخواتي الصّغيرات يتحلّقْنَ حول مائدة الفَطور ، نظرتْ أمّي إلى أبي ، كان غارقًا في صمته ، يتناول لقمته دون أنْ يُحدّثَ أحدًا ، قالتْ له دون مُقدّمات : « سألِدُ ولدًا» . ازدردَ اللّقمة

وهو ينظر في عينَيها اللّتَين شَعّتا ببريقِ الثّقة ، وتابع صمته ، غمسَ لقمته الجديدة في الصّحن ، أردفتْ هي سهمًا آخر في أذنه : «وعليكَ أنْ تُسمّيه عبد الله أو أحمد» . هذه المرّة استوقفتْه نبرةُ الإملاء الّتي في صوتِ أمّي ، كادَ أنْ يقول شيئًا ، لكنّه استعاض عن تحفّزه للقول ببلع اللّقمةِ الجديدة ، أمالتْ رأسَها إلى اليمين ، وكرّرتْ بصوتها الحادّ : «ألم تسمعْني؟! سألدُ ولدًا» . تناول كأس الشّاي ، رشف منه رشفةً عميقة ، كان ما يزال ساخنًا ، وجردَ حلقه بتلك الرّشفة لكي يبدأ حِوارًا يعرف أنّه لن يُجدي ، سألها بلهجةٍ ساخرة : «ولد . . .؟ قلتِ لي ولد . . إلى أيّ عَرّافٍ ذهبتِ من أجل أنْ يقول لك هذا؟» . نظرتْ إليه مستغربةً : «عَرّاف؟! هل غيابُك عن البلد جعلك تؤمن بالعرّافين؟» . «أنا أقول ذلك ساخِرًا يا امرأة» . «وأنا أقول لك مُوقِنًا بأنّ الّذي سينزل من هنا . . . « وأشارتْ إلى بطنها . . . «سيكونُ ولدًا . . . وسيخلفُ أخاه باسِمًا . . . ألا تنظر إليه (وأشارتْ إلى أخي الأكبر المُسجّى) ها هو ما زال طريحًا في الفراش ، لا يكاد يستطيع المشي» . حانتْ منه التِفاتة إلى ابنه باسم ، كان وجهه الملائكيّ يغطّ في نومٍ عميق حتّى هذه اللّحظة ، لم يعد قادرًا على المشي بشكلٍ صحيح مُنذ أنْ أقعدتْه تلك الحُمّى اللّعينة الّتي لازمتْه شهورًا طويلةً ، ولم تنجح معه محاولات الأطبّاء للقضاء عليها . . . النّاس قالوا : إنّ عينًا أصابتْه . . . آخرون تكهّنوا بأنّ امرأةً من الحصّادين الّتي بهرها جمالُه وكانتْ عاقِرًا هي الّتي سحَرَتْه كيدًا لأمّه الّتي تتباهَى به أمام العاملين في الحقول . . . كان قد وطّن نفسه على أنْ يطرد تلك الفرضيّات من رأسه ، وها هي اليوم تعود إليه الفرضّيات نفسها لتنهض في وجه المقارنة بينه وبين المولود الجديد» . «سيعوّضنا كثيرًا» . قالتْ أمّي . «نحنُ بألفِ خيرٍ يا

امرأة ولا نحتاجُ إلى تعويض» . ردّ أبي بشيءٍ من الضّيق ، وسكبَ له كأسًا أخرى من الشّاي . لكنّ أمّي تابعتْ بذات اللّهجة الواثِقة لتؤكّد على أبي : «ماذا ستُسمّيه أعبد الله أم أحمد؟» . «اهدئي يا امرأة ، وصلّي على النّبي . . حينَ يُشرّف بالسلامة ، سيكون من السّهل أنْ نُسمّيه» . وقام . كان يُريدُ أنْ يهربَ من نفسه ، ومن تلك الجُمل الّتي يعجّ بها فضاءُ القرية : «ألا تريد أنْ تنجب ولدًا يقيك شرّ المصائب ، ويقف إلى جانبكَ عندما تكبر . . . كان يشتمهم في سِرّه ، وهذا باسم ماذا تُسمّونه يا فارغي العيون . . . فيسمع همسهم : باسم لن يعيشَ طويلاً ، وإذا عاشَ فلن يكون قادرًا على أنْ يحمل منجلاً في حقول القمح ، ولا سلاحًا في ميادين الحرب . . فيردّ عليهم دون أنْ يسمعوه : سيعيش عمرًا أطول من عمري ومن أعماركم ، وسيظلّ النّاس ينادونني به (أبو باسم) وسأفتخر بأنّه بِكري الّذي حمل اسمي . . .» .

يمضي أبي إلى عمله ، وأمّي تُلاحقه ببطنها المُنتفخة وبالسّؤال ذاته : «ماذا سُتسمّيه . . . عبد الله أم أحمد؟!» . وحينَ لا تجد إلاّ الصّمت ، تصرخ : «هكذا أنت . . . لا للصّدّة ولا للرّدّة . . . لكنْ سترى غدًا صِدْقَ ما أقول . . . غدًا حينَ يولَد ابني هذا ستعرفُ كيف تُحبّه وكيف تفخر به وكيف سيصنع لكَ اسمًا لن تسناه الأجيال . . . غدًا ستعرف يا أبو . . .» . وتتوقّف لتعود إلى بيتها ، وهي تلهج بالسّؤال الّذي لم يسقط عن شفتها لحظةً واحدة : «ماذا سُتسمّيه . . . أنا أعرف أنّكَ ستختار أحدَهما ؛ أتعرف لماذا؟ لأنّني متأكّدة من أنّه لا يوجد اسمٌ ثالث لهذا المولود القادم عمّا قريب . . . أبدًا . . . وسنكتشف ذلك معًا؟!» .

كان شهر شباط ما زال في أوّله ، حلّ بكلّ لياليه الطّويلة الباردة ، حلّ برياحه الجارحة ، لكنّه قبل أنْ يرحل حمّل لآذار كنوزه المُثقلَة

ومضى . . . كانت البرودة ما تزال تتسرّب في حجارة الأرض وترابها . أبتْ أنْ تُغادر سريعًا من أجل أنْ تنعم (إبدر) بالدّفء في أوقات الظّهيرة ، وحينَ لم تعدْ تخشى لسعةَ البرد ، ولا سكّينه الذّابحة لأنّ مولودًا مُنتظرًا سيشرّف عمّا قريب ، تحمّلتْ أمّي كلّ شيءٍ ، وشعرتْ أنّ آلام البرد تتضاءل أمام فرحة الميلاد ، وعبرت أمّي موجةَ البرد بقولها حين صرختُ صرختي الأولى : «سينتهي كلّ هذا ، لقد حلّ الرّبيع مُبكّرًا في بيتنا هذا العام ، وقريبًا سيحلّ الرّبيع في الأرض ، ولن يكون ابني أقلّ جمالاً من أيّ وردةٍ من تلك الورود الّتي يُطلعها» .

كان ذلك يوم الثّلاثاء ، ملأتْ عمّاتي وخالاتي سماء (إبدر) بالزّغاريد ، وشاركتْهنّ أمّي بصوتها الواهن ، ولم تكنْ قد برئت تمامًا من آلام الولادة ؛ فقد ولدتْني على فرشةٍ بالية وحصيرة ، وكانت القابلة إحدى نساء القرية ، كان ذلك شائعًا أيّامها ، ومع أنّ الفقر كان يمسح بيده الخشنة على كلّ شيءٍ في قريتنا ، إلاّ أنّ أمّي اجتهدتْ أنْ تصنع – رغمَ ذلك – بعض الأجواء الاحتفاليّة لحظةَ قدومي ، رفعتْني بيدَيها الحانيتَين ، وتشمّمَتْني لتشبع من رائحتي ، ثُمّ ضمّتْني إلى صدرها طويلاً ، قبل أنْ تنزل دمعتا فرح على خَدَّيها المُتورّدَين ، نادتْ أبي لتقول له إنّ أوّل بُشرى قد تحقّقتْ ، لكنّ صوتها لم يُجاوِزْ حنجرتها ، أو ربّما لم يسمعها ، ليسَ مهمًّا الآن أنْ يسمعها ، المهمّ أنْ يراها وتراه ، أنْ تنظر في عينَيه عميقًا لتكسب التّحدّي من أجل أنْ يُساعِدها ذلك في البُشرَى الثّانية .

في صباح اليوم الثّاني ، كنتُ مُمدَّدًا إلى جانبها ، وكان أبي قد استيقظ ، كانتْ علائم الفرحة تُغطّي غضون وجهه ، وتعلو تقاسيم وجهه القرويّ الهادِئ ، لم تشأ بصوتها الخفيض أنْ تقول له : «إنّ ما

رأته في المنام كان من الملائكة» . فاكتفتْ بإعادة السّؤال الّذي ظلّ يحوم في صدرها من شهورٍ طويلة : «هل ستسمّيه عبد الله أو أحمد؟» . رفع ابنه بين يدَيه مُتجاهلاً السّؤال ، لكنّها جذبتْه من طرف ثوبه ، وقالتْ له : «انظر في عينَيّ . . . لن تجدَ له اسمًا ثالثًا ، ولولا أنّ المرأة الّتي زارتْني في المنام غابتْ في الظّلام ، ولو أنّها أخبرتْني باسمٍ واحد له فإنّك حينئذٍ لن تجد له اسمًا ثانيًا . . . لكنّها . . .» . وتنهّدتْ قبل أنْ تتابع : «سامحها الله أوقعتْنا في الحيرة بين هذين الخيارَين» . ردّ عليها ، وهو يُزيح طرفه بعيدًا عن عينَيها اللاّمعتَين : «أنا لا أريد أنْ أُسمّيه بأيّ اسم من هذين الاسمَين ، بل سأسمّيه مُصطفى على اسم أبي» . «لِعمّي كلّ الاحترام ، ولكنّ البُشرى لم تذكر اسمه من ضمن الأسماء» . «أيّ بُشرى يا امرأة ، ما زلتِ تُصدّقين هذه الخزعبلات الّتي تأتيك في الأحلام!!» . ردّتْ عليه بحسم : «هذه الّتي تُسمّيها خزعبلات هي الّتي صدَقتْ في المرّة الأولى» . «ومن أدراكِ أنّها ستصدق في المرّة الثّانية!! أنا أبوه وسأسمّيه على كيفي» . «لن تنجح» . فاجأه ردّها . كتم غيظَه ، أعادَه إلى حضنها ، وهمّ بالانصِراف . قالتْ له متودّدة : «لا تُكابر يا أبو باسم . . . عندي اقتِراح ربّما يحلّ المشكلة» . نظر إليها باهتِمام . وتابعتْ هي : «ضع في ورقتَين في كلّ واحدةٍ منهما اسم عبد الله واسم أحمد ودَع أحد الأولاد الصّغار في القرية يسحب الورقة ، وسنسمّيه بالاسم الّذي يظهر في الورقة» . سأل مُستهجِنًا : «ولماذا لا نُضيف ورقةً ثالثة فيها اسم مصطفى؟!!» . «لا تحاول لن تنجح في ذلك ، ولو وضعت تسعةً وتسعين اسمًا وسحبْتَ ورقةً واحدةً فلن يظهر عليه إلاّ اسم من اثنَين ؛ عبد الله أو أحمد» . كانتْ تُحاصره وتُغيظه ، ولكنّه فكّر بأنّ تسعةً

وتسعين اسمًا فرصةٌ سانِحة لجَعل نسبة تسميته بهذين الاسمين ضئيلةً جدًّا ، فصرخ وهو واقف في ظلفة الباب : «سأفعل ، سنكتب تسعةً وتسعين اسمًا على تسع وتسعين ورقةً ونسحبُ إحداها ، وسأسمّيه بالاسم المكتوب فيها» . ثُمّ غادرَ مُغضبًا ، وكانتْ هي من خلفه تبتسم مرتاحةً .

في المساء ، كان قد جمع إخوته ، وعددًا من أولاد عمّه وأولادهم ، وأخبرهم بما عقد عليه عزمه ، وجيء بالأوراق ، وكُتِبتْ فيها أسماءُ تسعة وتسعين ، ثُمّ أُمِرَ بها فخُلِطَت في صحنٍ معدنيّ عميق ، ثُمّ جيء بأصغر الحاضرين فمدّ يده وأخرج ورقةً من هذه الأوراق ، وسلّمها للعمّ الأكبر ، ففتحها ، وقرأ فيها : (أحمد) ، صاح الجميع : «إذا فلْنُسمّه أحمد» . مطّ أبي شفتَيه ، بحثَ عن حُجّة ليرفض بها هذه القرعة ، قال إنّ الولد لم يخلط الأوراق بشكلٍ جيّد ، اعترض عليه أحد أبناء عمومته : «إنّه ولدٌ صغير ولا يعرفُ المحاباة ، بل ليس له أيّ مصلحة في ألاّ يخلط الأوراق بالشّكل المناسب ، ماذا دهاك يا أبو باسم؟» . لكنّ أبي أصرّ أنْ تُخلَط الأوراق من جديد ، ويقوم بذلك طفلٌ آخَر . . . كانتْ أمّي في تلك اللّحظات تسترق السّمع وهي تحاول أنْ تفهم بين الأصوات المُختلطة ما يدور في الغرفة المُجاورة في هذا الاقتراع الحاسِم الّذي سيكون له ما بعده . . . بالفِعل خُلِطت الأوراق من أحد الأطفال الّذين لم تتجاوز أعمارهم السّابعة والّذين ضاقتْ بهم غرفة الضّيوف على اتّساعها ، وأخرج الورقة الّتي تابَعها أبي بعينَين راجِيتَين ، ودُفِعَ بها إلى أحد أبناء عمومته ، وفتحها ، ليقرأ على مسامعهم من جديد أنّها تحمل اسم : (احمد) ، لم يتمالك أبي نفسه ، صفقَ كفّه اليُمنى على كفّه اليُسرَى كأنّه فقد أرضًا عزيزةً عليه ، كان

يُحبّ لابنه أنْ يحمل اسم أبيه ، لكنّ موقفه من الاعتراض على القرعة الّتي لا تشوبُ عدالتَها شائبة يبدو مُخزِيًا وغريبًا أمام أقاربه ، وتنحنح قبل أنْ يقول : «المرّة الثالثة ثابتة» . وأعيدت القرعة ، كان أبي يبدو أنّه يستسلمُ لقدَرٍ لا مفرّ منه ، وأنّ طلبَه للمرّة الثالثة استخراجُ اسمٍ من بين تسعةٍ وتسعين اسمًا هي محاولةٌ غير مُجدية ، وأنّها تُشبه من يذهب إلى حقول القمح في الشّتاء ليحصدها . كان اسمي (أحمد) في المرّة الثّالثة يظهر من جديد ، خُيّل إلى أبي أنّ أمّي من وراء الجدار تقول له : «لو فعلتَ ذلك تسعةً وتسعين مرّة فلن تقرأ في الورقة غير هذا الاسم» . استسلم أبي لما يرى غيرَ مُصدّق ، رفع يده ، وقال : «يكفي» . هدأت الأصوات الّتي علت مندهشةً مِمّا يحدث ، قال أبي هذه المرّة بصوتٍ مُستسلم لقدر الله ، لكنّه راضٍ به : «الأمر واضح ، ولم يعد المفرّ منه مُجدِيًا ، اسمُه أحمد ، هكذا سأسمّيه» .

طُوِيتْ تلك الصّفحة ، ومضتْ أمّي تبحثُ لي عن غدي المُنتَظر ، وترسمه كذلك ، كانت من هذا النّوع من الأمّهات اللّواتي يقلْن لأنفسهنّ : «ثكلتْه أمّه إنْ لم أصنعْ منه رجلاً يسود أهله ، وينتشرْ ذِكرُه في المشرق والمغرب» .

(١)
سآخذُ بُندقيّتَك حينَ أكبرُ

كـبـرتُ مـثلَ كلّ الأطفـال ؛ أحبّ اللّعب بما توافـر من كُـرات القِماش ، أو إطارات السّيّارت ، أو عُلب الصّفيح الفارغة . وأعشق المشي في السّهوب بلا هدف ، والرّكض في المنحدارت بلا غاية ، والاختباء خلف الصّخور الكبيرة في المساءات الرّبيعيّة ، كانت الصّخور تأخذ من الشمسِ دِفئها فيتسلّل ذلك الدِفءُ إلى ظهري وأنا أسندُهُ إليها ، عرفتْ حارات (إبدر) بصمةَ أقدامي لطول ما ذرعتُها ، وحفظتْ أنسامُها شهقاتي لطول ما التقطْتُها وأنا أعدو خلفَ القِطط الهاربة ، أشربُ من جِران الماء بعد ليلةٍ باكِيةٍ من ليالي الشّتاء الرّماديّة ، كان دُخان المواقد المُتصاعد من البواري فوق البيوت يزيد الشّتاء جَمالاً ويبعثُ الحرارة المُشتهاةَ في الأرواح وإنْ كان الصّقيع يُخيّم على كلّ شيء . وفي الخريف كنتُ أجمع الأوراق اليابسة في يدي لتُصبح هشيمًا ثُم أفتح قبضةَ يدَيّ وأنثرها في الفضاء لتذروها الرّياح العاتية . . . أجمل الأشجار تلك الّتي تسقطُ أوراقُها ولا تسقطُ قاماتُها ؛ تظلّ سامِقةً في السّماء تتحدّى العواصف المُزمجرة ، وتصمد أمام جيوش الرّيح الهائجة ؛ كأنّما تقول لها – وهي تُعلِنُ عن إصرارها وتحدّيها – مهما زمجرتِ فسترحلين في النّهاية ، أمّا أنا فسأبقى هنا صامِدةً ؛ لأنّ جذوري ممتدّة عميقًا في هذا الثّرى النّديّ . وكنتُ أطارد الفراشات في الحقول ، في فصل الألوان واللّوحات المرسومة في كلّ مكان ، الفصل الّذي تستعيدُ

فيه الطّيور أصواتها ، والبلابل غناءَها ، كان الرّبيع يقول إنّ الحياة موتٌ لولا الماء ، وإنّ الأرض صحراء لولا الورد ، وإنّ الورد شَمْعٌ لولا الشّذا . وكنتُ أستمع إلى غناء الحصّادين في الصّيف . . . وأنام في ظلّ شجرةٍ من أشجار الزيتون الهَرِمة ، وأتّكئ على جذع سنديانةٍ عتيقة ، وأتسلّق فروع شجرة توتٍ بيضاء وآكل من حبّاتها حتّى أشبع . . . ثُمّ أركض في الحقول المفتوحة على المطلق ، وأجري في الدّروب الخالية إلاّ منّي ، وأفتحُ ذراعَيّ للحرّيّة الّتي تتراقص في آفاقٍ لا يقوم على مدى الرّؤية فيها شيءٌ إلاّ خيالي الجامح . . . ومن بعيدٍ تتراقص في اللّيالي الدّافئة أضواءٌ قال لي أبي إنّها فلسطين ، وعلى الجانب الآخر قال لي : إنّها الجولان . . . وكنتُ أسأله : «وما فلسطين؟» . فيقول : «إنّها بلادُنا المغصوبة؟» . فلا أفهم شيئًا . وأساله : «وما الجولان؟» . فيقول : «إنّها جبالنا المنهوبة» . فلا أفهم شيئًا كذلك . كانتْ قريتي كلَّ عالَمي ؛ فأساله : «ولماذا يسكنون بعيدًا عنّا ، لماذا لا يأتون ليسكنوا معنا؟» . فيُجيبني : «لأنّهم لا يستطيعون أنْ يفعلوا ذلك» . فأسأله من جديد : «ولكنّ خالتي جاءتْ من هناك هي وزوجها وسكنتْ في الزّرقاء كما قالتْ لي أمّي» . فيردّ : «ولكنّ خالتَك هجّت يا بُنيّ؟» . فأسأله : «وما معنى هجّتْ؟» فيقول : «غَصبِنْ عنها؟» . فأساله : «لماذا غَصبن عنها؟» . فيجيب : «بسبب الحرب؟» . «أيّ حرب؟» . «حرب الـ ٦٧» . «لماذا سمّوها حرب الـ ٦٧ ؟!» . «إنّها الحرب الّتي قُتِلْنا فيها بسبب الخيانات؟» . «الخيانات يا أبي؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟» . «عندما تكبر سأقول لك ماذا تعني» . «ولكنّني كبيرٌ يا أبي ، انظر إلى عضلاتي . . .» . «لا يا بُنيّ . سأُحدّثك غدًا عن أشياء كثيرة فلا تتعجّلْ» . «أنا أريد أنْ أعرف الآن ، هل خالتي هجّتْ بسبب الحرب؟» .

«نعم يا بنيّ . ومَنْ هو الّذي هجّجها؟» . «اليهود» . «اليهود!!» . «نعم يا بُنيّ . . . اليهود قتلونا ، وذبحونا في كلّ مكان ، وجميع الأنظمة العربيّة ساهمتْ بتسليم فلسطين لليهود يا بُنيّ» . كانتْ كلمة (الأنظمة العربيّة) تدخل قاموسي لأوّل مرّة ، ويبدو أنّها لن تخرج من الذّاكرة أبدًا ، شعرتُ أنّها كلمةٌ كبيرةٌ ، وأنّ السّؤال عنها قد يجرح معناها ، فآثرتُ أنْ أسكت وأن أسأل باتّجاه آخر ، فقلتُ : «لماذا لم تُقاوموا اليهود وتُدافِعوا عن أنفسكم إذا كانوا قد قاموا بقتلكم؟» . تنهّد أبي حتّى شعرتُ أنّ لهيبَ أنفاسه قد حرقَ صدري أنا ، قال : « لقد تُرِكنا مكشوفين أمامهم ، عُزْلاً ، وصيدًا سهلاً ، وخُدِعنا ببنادق تنفجر منها الطّلقة بنا لا بهم ، ولم يكنْ معنا ما ندافع به عن أنفسنا بشكلٍ حقيقيّ؟ كان عدد القتلى والجرحى كبيرًا ، امرأة عمّك فارقتِ الحياةَ هنا هي الأخرى» . «اليهود فعلوا بنا كُلّ ذلك يا أبي؟» . «نعم يا بُنيّ» . «وهل هم بشرٌ مثلنا؟» . «لا أدري يا بُنيّ» . «هل كانتْ امرأة عمّي جميلة يا أبي؟» . «وكريمة أيضًا ، كانتْ تُساعِدُ كلّ من في القرية ، حصدتْ مع الحصّادين ، وزرعتْ مع الزُّرّاع ، وقطفتْ الزّيتون مع أهل القرية ، وكانتْ حنونةً على كلّ الأطفال ، كانتْ تُحبّ الجميع ، وتمدّ يد المساعدة لكلّ أحد» . «لماذا قتلوها إذًا إذا كانتْ تُحبّ الأطفال؟!» . «لأنّهم لا يريدون لها أن تعيش» . «هل قتلوا غيرها من قريتنا يا أبي؟!» . «كثيرًا» . «هل اليهود دائمًا يَقتلون؟!» . «نعم يا بُنيّ دائمًا يقتلون» . «لن أتركهم يقتلونني ، وسآخذ بندقيّتك حينَ أكبر وأقتلُهم» . «ما زلتَ صغيرًا على هذا يا بُنيّ» . «قلتُ لك لستُ صغيرًا ، أنا كبيرٌ وانظرْ إلى عضلاتِ يديّ» . «الآن تعالَ معي» . «أريد أنْ تُحدّثني أكثر عنهم يا أبي» . «ستكبر يا ولدي وستعرف أكثر» .

عَبَرْنا المقبرة ، ثُمّ حقولاً خالية كانتْ تُزرَع بالذّرة في غابر الأيّام ، إلى أنْ وصلْنا إلى حقول الزّيتون المُمتدّة امتداد البصر . . توقّف أبي فجأة ، وقال لي : هنا يا بُنيّ . . . لم أفهم ماذا يريد أنْ يقول ، لكنّه رفع بصره إلى الأفق ، وأشار بإصبعه ، قَدِموا من هناك ، كانت خمس طائرات . . ثُمّ صمت . . وراح يفحص الأرض بعينَيه ، غامتْ عيناه كأنّه يرى مشهدًا من المشاهد الدّامية ، ويستعيده في ذاكرته .

شقّ صوتُ هديرهنّ السّماء الهادئة فجأة ، من أين جاءت هذه الغربان النّاعقة الّتي تملأ هدوء القرية زعيقًا؟! لا أحدَ يدري ما يحدث ، كانتْ حرب الأيّام السّتّة قد رحلتْ منذ سنتَين ، وهدأ غُبارها الخانق ، لكنْ أنْ تتضخّم الذّات عند الكيان المُغتصب فيُغيرُ متى شاء كيفما شاء فتلك هي المأساة الّتي تختبئ خلفها مآسٍ أُخرى . عرف أهل القرية أنّ معسكرات الجيش ومعسكرات الفدائيّين هي المقصودة ، لكنّهم هم أيضًا قد يكونون مقصودين ، فاليهود لم ينسَوا بعدُ أنّ أهل هذه القرية بالذّات هم مَنْ قاموا بإيواء المُقاتلين ، وبتوفير الطّعام والشّراب والمسكن لهم في أتون المعركة ، وهم مَنْ كانوا بمثابة خطوط الإسناد والدّعم الخلفيّة لكلّ المُجاهدين ، بل من هنا انطلقتْ بعض العمليّات الفرديّة الّتي أوجعت المحتلّ ، وجرحتْ كبرياءه .

مرّت دقائق التّحليق ثقيلةً على كلّ مَنْ في القرية ، استغلّها الكبار بالطّلب من أهالي القرية أنْ يخرجوا من دورهم إلى المزارع ؛ لأنّهم سيتحوّلون وهم في الدّور إلى صيدٍ ثمينٍ سهل الاقتِناص بالنّسبة للمحتلّ ، كان الوقت يمرّ دون استجابةٍ كبيرة ، قال بعضهم : لن نرحل عن دورنا ، فلْيفعلوا ما يشاؤون ، إنْ كان لا بُدّ من الموت فلنْ نموت ونحن هارِبون كالصّراصير . . . دوّتْ أوّل قذيفةٍ سقطتْ في المقبرة